الجزء الثاني المجلد الثامن والأربعون

مجلة

مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

ربيع الأول سنة ١٣٩٣ هـ نيسان « ابريل » سنة ١٩٧٣ م

واضع اللغة

الأستاذ شفيق جبري

في الجزء الثاني من المجلد السابع والأربعين من هذه المجلة مقال لأمين مجمعنا الدكتور شكري فيصل عنوانه : « المصطلح المعرّب وتدريس العلوم بالعربية ـ نحو وجهة نظر أخرى »، لا يجوز أن نمرّ به دون أن نتمهل في قراءته، وإذا كان المجال لا يتّسع للإشادة بمحتويات هذا المقال الطريف بجذافيرها فأرجو إن يتسع هذا المجال للوقوف على مقطع منه، وهذا هو المقطع : « إن عند كل إنسان، عالم أو متعلم، طاقة لغوية، والتدريس باللغة الأجنبية يبدّد هذه الطاقة، اننا نجد هذه الطاقة عند العامّة من الناس، عند الصناع والحرفيين الذين يمسكون بالآلة ويديرونها بين أيديهم ... مئات من المصطلحات وضعها هؤلاء الذين يعانون

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التعبير وتشتدّ حاجتهم إليه فتنطلق به ألسنتهم ، إنه ينبثق عندهم انبثاقاً .. إنهم يضعون ويعرّبون ويغمسون اللفظ الأجنبي في حوض عربي ، ويمنحونه أحياناً القالب أو الصبغ العربي ... إنهم يقدّمون المادّة الأولى للعلماء والمجامع .. »

حسبي الوقوف على هذا الجزء من المقطع لأجعله موضوعاً لخاطر وجيز دون أن أتبسّط في الذي تبسّط فيه الدكتور شكري فيصل، فقد عالج موضوعه من أكثر النواحي بحيث لم يترك لنا مجالاً على ما أعتقد للقول أكثر ممّا قال . لقد فطن في الكلام الذي استشهدت به إلى ما لم يفطن إليه إلاّ القليل ،فطن إلى جهد العامّة في وضع اللغة ، حسبه أنه فطن إلى ما سمّاه : طاقة العامّة اللغوية .

لقد ذكّرني مقال الدكتور شكري فيصل مقالاً كتبه « أنا تول فرانس » في كتاب من كتبه الأربعة : الحياة الأدبية ، فقد طالع كتاب : « دارمستتر » وعنوانه : حياة الألفاظ فمضى له قول في هذا الكتاب أرجو أن أسترشد ببعض ما جاء فيه .

يرى « فرانس » أن الشعب هو الذي يضع اللغة ، وقد كان « فولتير » على غير هذا الرأي ، فمن المحزن في نظره أن نرى في موضوع اللغات وفي موضوع أمور ثانية أعظم شأناً أن الرعاع هم أوّل من يسوق الأمة في هذا السبيل .

أمّا « أفلاطون » فقد كان يقول بغير هذا الرأي ، كان يقول إن الشعب في موضوع اللغة إنما هو أستاذ من الطراز الأول ، وأنا تول فرانس على هذا الرأي ، فهو يرى أن الشعب يصنع اللغات صنعاً جيّداً ، فهو يصنعها ذات تصاوير ، إنه يصنعها واضحة ، حيّة ، مؤثّرة ، ولو صنعها العلماء لكانت اللغات ثقيلة ، إلاّ أن الشعب لا يُعنى بالنظام ، فليس له فكرة الأسلوب العلمي ، إنه يكتفي بالغريزة ، فهو يخلق ما يخلق بالغريزة ، إنه لا يضيف إليها التفكير .

لا أريد التوسّع في هذه الاستشهادات وإنما الذي أريده إنما هو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تأكيد ما قاله الدكتور شكري فيصل من أن للعامّة طاقة لغوية ، إني أعيش في قرية من أربعين سنة ، وأنا أسمع في لغة أهل هذه القرية ألفاظاً لا أسمعها في دمشق ، إنهم لا يعجزون عن التعبير عن أفكارهم وعن توليد مصطلحات غريبة سواء أكانت مطابقة للغة أم غير مطابقة ، فاذا جاء تشرين الأول قالوا : تَشْرَنَتْ ، وإذا أراد أحدهم أن يضع التراب على سطح داره أو على غير السطح قالوا : تَرَّبَ ، وإذا أصيب أحدهم برائحة الكاز قالوا : كيّز ، إلى كثير من هذه التعابير الغريبة . وقد نجد في المدن كثيراً من مثل هذا التصرف ، والألفاظ البي ولّدتها العامّة في هذا السبيل غير قليلة ، فالتجّار كانوا يستعملون في مصطلحاتهم قولهم : تيّلونا ، أي أرسلوا إلينا تلغرافاً ، فاشتقّوا من كلمة التلغراف الأعجمية لفظة : التيل ، ثم اشتقوا الفعل وهو : تيّل ، إلى أن ارتقت اللغة فحلّت لفظة : أبرق محلّ لفظة : تيّل ، ومن هذا القبيل قول الناس : تلفن أي خاطب بالتلفون ثم حلّت لفظة الهاتف محلّ التلفون الأعجمية ، وما ذكرت ما ذكرت إلاّ على سبيل الاستشهاد .

وليس معنى هذا أننا ينبغي لنا أن نفسد اللغة ، فلو فعلنا ذلك ، معاذ الله ، لجعلنا لغتنا الكريمة فوضى تنتقل ألفاظها بين سنة وسنة من طورٍ إلى طورٍ بحيث إذا مضت بضع سنين فإن الأحفاد لا يفهمون كلام الأجداد ، وإنما الذي أريد الإشارة إليه أن الشعب لا يعجز عن تليين اللغة وعن وضع الألفاظ التي يحتاج إليها وهذا ما أشار إليه الدكتور شكري فيصل في مقاله الفيّاض .

لقد تتبعت طائفة من بقايا الفصاح ، تتبعت طائفة من هذه الألفاظ التي استفاضت في العامّة وأصلها فصيح ، ماذا رأيت في هذا التتبع ؟ لقد اهتديت إلى كثير من قدرة العامّة في اللغة ، ومن تصرفها في أمور هذه اللغة ، فهي تحوّل معاني الألفاظ عن وجهٍ إلى وجهٍ ، تارةً تحوّلها عن أفق ضيق إلى أفق أرحب ، وتارة تعكس الأمر فتصرفها عن وجه رحب إلى وجهٍ ضيّق ، وحيناً تقلب معاني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الألفاظ إلى أضدادها أو أنها تنقلها من الحقيقة إلى المجاز، إلى غير ذلك من المذاهب التي تذهبها العامّة في اللغة . ومعجماتنا لا تعنى على ما أظن بلغة العامّة ، على أن هـذا الأمر ليس هو وحـده الذي تفتقر إليه معجماتنا ، فإنّا نجهل ميلاد الألفاظ ، كيف نشأ اللفظ الفلاني في صدر أمره ، وكيف انتقل على توالي الأحقاب من شكل إلى شكلٍ حتى صار إلى ما صار إليه من الكمال .

كيف نشأت لغتنا ؟ إذا استطاع كاتب بليغ مثل « أناتول فرانس » أن يجعل صلة بين الأرض وبين اللغة ، إذا استطـاع أن يقول إن اللغة ولدت في الريف ، وإذا كانت المدن قـد أضافت بعض الشيء إلى حسنها وروقتهـا فإن اللغة تستنبط كل قوتهـا من الريف ، إذا استطاع أن يقول مثل هذا القول فهل نستطيع أن نقول إن لغتنا ولدت في الريف ؟ هـذا أمر يرجع الجزم بـه إلى علماء اللغة وحدهم ، ولست منهم في شيء .

تخضع اللغة لكثير من قوانـين الطبيعة فإن العالم الفرنسي « دار مستتر » يطبّق على الألفاظ قوانين النشوء والارتقاء ، فالفكر البشري لا ينقطع عن تغيير هذه الألفاظ وفقاً لمذهب تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي .

كم تكون لذّتنا عظيمة إذا استطعنا أن نرّد الألفـاظ إلى أصولها كما فعل « أناتول فرانس » والعالم « دار مستتر »، إنهما يقفان على لفظ فرنسي فينبّهان على صلته بلفظ لاتيني، أو إنهما يقفان على تعبير فيرشدان إلى صلة هذا التعبير بالأرض التي ولد فيها ، هذا ما لا نجده في معجماتنا .

غير أني كدت أنحرف عن جوهر الموضوع وهو قدرة العامّة على اللغـة ، فالألفاظ على نحو ما قال « دار مستتر » تحتفظ بالطابـع الأول الذي خلقه فيهـا الفكر البشري ، إن الناس تتسلسل ذريّاتهم فيأخذون عن الذين سبقوهم تقاليد التعبير والأفكار والصور ، وينتقل هذا كله إلى الذين يأتون بعدهم ، وعلى هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نستطيع أن نقرأ تاريخ العرب كله في معجم عربي كما يقرؤون تاريخ فرنسة في معجم فرنسي .

لقد استخرج « أناتول فرانس » من هذا الموضوع نتيجة لا بأس بأن أختتم بها المقال ، فهو يرى أن الناس يتخاطبون ليتفاهموا ، ولذلك فإن الاصطلاح إنما هو القاعدة المطلقة في أمور اللغة ، فلا العلم ولا المنطق يستطيعان أن يفوقاهذا الاصطلاح ، فالإفراط في حسن التعبير إنما هو إفراط في سوء التعبير ، فإن أحسن الألفاظ في العالم إنما هي أصوات لا فائدة فيها إذا كنّا لا نفهمها .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net